تعلم الانسان من الحيوان

يذهب فريق من الكتّاب الى ان الانسان اخذ عن الحيوان مبادئ العلوم والفنون والصناعات فتعلم خزن الحنطة من النمل وقطع الاشجار من البدستر وبناء البيوت من الطيور. ولا ندري لماذا لا يقال ان الحاجة التي علّمت النمل خزن الحنطة والبدستر قطع الاشجار والطيور بناء البيوت علمت الانسان هذه الاعمال وغيرها ففاق فيها العجماوات لتفوّقه عليها جسداً وعقلاً . وهذا لا ينفي ان يكون الانسان استفاد من رؤية الحيوانات تعمل اعمالاً تدلّ على نظر وروية او على كرم في الاخلاق . وقد كتب البرنس كروبتكن الروسي مقالة مسهبة في هذا الموضوع نقتطف منها ما يأتي قال

ان الناس في حال البداوة رأوا طوائف الحيوان تكتنفهم من كل ناحية . رأوا آجال القرود وقطعان الغنم وعراجل السباع وعصابات الطيور وخشارم النحل كل فريق منها يعيش على تمام الوفاق والوئام يعضد بعضهُ بعضاً كأنهُ اعضاء عائلة واحدة يسعى كلٌّ منها في نفع الجماعة فتعلموا من ذلك الالفة والوئام وتعلموا ايضاً انهم هم وطوائف الحيوان عيال على الارض يعيشون من خيراتها .

ورأوا ان الحيوانات الضارية التي تعيش بافتراس غيرها لا يفترس بعضها بعضاً بل يعيش افراد النوع الواحد على تمام الوفاق والوئام كما ترى في الضباع وبنات آوى . وما تفرّق منها ولم يعد اسراباً كبيرة بل صار يعيش وحدهُ منفرداً كالنمر والنمس والهر البري انما لجأ الى الانفراد بعد ان تعقّبهُ الانسان وكاد يقرض نسلهُ . اما سائر انواع الحيوان التي تعيش من نبات الارض كالغزلان والايائل والحمر البرية فلم تزل تعيش بعضها مع بعض قطعاناً كبيرة وتقيم عليها الحراس من نوعها لحراستها من عدو مفاجئ . واذا فاجأها العدو اجتمعت اناثها وصغارها معاً ووقف الذكور الكبار حولها كالسور للدفاع عنها وقد تهلك الذكور ذوداً عن حرمها . ولا بدّ من ان يكون الناس قد رأوا ذلك من قديم الزمان وتداولوا اخباره واكبروا امرهُ واعترفوا للحيوان الاعجم بالعقل والادراك وتعلموا منهُ كيفية الدفاع عن محارمهم

والحيوانات التي تقيم في مكان واحد تحفر فيهِ اوجارها او تبني قراها او تقيم سدودها كالكلاب البرية والبرايع والنمل الابيض وكلاب الماء رآها الانسان من قديم عهدهِ فتعلم منها المعيشة الحضرية وبناء المساكن والقيام فيها . ولا يزال الرعاة في بلاد المغول يرون اوجار الوبار واهراءها مملوءة بالجذور التي جمعتها في الصيف لتقتات منها في الشتاء فيجدون انها احكم

منهم وابعد نظراً . وعلى هذا النحو حض الحكيم الكسالى ليذهبوا الى النملة ويتعلموا منها الاجتهاد والحكمة . ولا بعد ان يكون اسلافنا قد تعلموا منها خزن الحبوب في الاهراء

والطيور على انواعها علمت الناس الالفة والحنين الى الاهل والوطن والتفاني في الدفاع عن الذراري حتى جوارح الطير يعيش ذكرها مع انثاه على تمام الحب والوئام ويسعى الاثنان لفراخهما كأن لا غرض لهما من الحياة الا تربية النسل . والعصافير الصغيرة اذا هاجمها ثعبان او باشق اجتمعت عليه واوسعته نقراً بمناقيرها ودفعاً باجنحتها حتى تزجره او تعمي بصره بل انها قد تدفع الانسان عنها في الدفاع عن بيضها وصغارها وتصم اذنيه بصراخها

اما ما تبديه الطيور من البهجة والحبور ولاسيما صغارها بعد الخروج من اوكارها فما يعجز الوصف عنه . ومن لم ير انواع البلبل والعندليب والحسون والسنونو والنعار والكنار والحمام والبام تقضي ساعة او ساعتين في التفتيش عن طعامها ثم تقضي سائر النهار في التغريد والترجيع كأن حياتها كلها لهو ولعب . أوَ لا يخجل ان اسلافنا الاولين ارادوا الاقتداء بها لما وضعوا المواسم والاعياد واجتمعوا فيها للهو والطرب

وهل فات الانسان رؤية الطيور القواطع كالسنونو والقلق واجتماعها قبل سفرها في مكان واحد عاماً بعد عام وهي تصيح وتتداول كأنها في مجلس شورى ثم تطير عصابة كبيرة فتحجب وجه السماء . هل فاتهُ ذلك او هل رآهُ يتكرر عاماً بعد عام ولم يتعلم منهُ شيئاً

ومن ينظر التمساح في نهره يفترس الفريسة فلا يأكل منها شيئاً حتى يدعو اهلهُ واقاربهُ ليشاركوهُ فيها . ويُقتل احد اقاربهِ فلا ينفكُّ عن الطلب بثأره الى ان يظفر بالقاتل . من ينظر ذلك ولا يحترم هذا الحيوان الاعجم ولا يلتمس للاقدمين عذراً في اكرامهم له اكراماً دينياً كما فعل سكان مصر الاقدمون وكما يفعل اهالي الهند الآن

واطال البرنس كربتكن على هذا النحو وقال ان الانسان لا يتعلم طبائع الحيوانات الا اذا شاهدها في مسارحها وغياضها ورأى ما تبديهِ من الاعمال التي تحيّر الالباب بما فيها من الحكمة والدهاء وان سكان المدن قد حُرموا ذلك لانهم لا يرونها مطلقاً او يرونها مسجونة في اقفاص ضيقة يتعذر عليها ان تسرح فيها وتمرح وتبدي ما يقتضيهِ طبعها . وقد ذكرنا قولهُ هذا قصائد كثيرة لشعراء العرب وهم في البادية قبلما تحضروا ووصفوا بها الوحوش والطيور وصف العارف بطبائعها المراقب لها في روحاتها وغدواتها لكنهم شحنوها بالفاظ لم تعد مألوفة فيتعذر فهمها على الجمهور الاكبر من القراء وتفوت فائدتها كقول حميد الارقط في وصف الصقر

ضارٍ غدا ينفض صيبان المطر عن زف ملحاح بعيد المكدَر

اقني تظلُّ طيورُ على حذر يلذن منهُ تحت انانِ الشجرْ

اي ان هذا الصقر قد أُغري بالصيد فقام ينتفض مما اصاب ريشهُ من المطر وهو انني اي احدب المنقار تخافهُ الطيور فلا تستطيع ان تعشش في الشجر فتعشش تحتهُ . وكقول الشنفرى يصف الذئاب

(١) واغدو على القوت الزهيد كما غدا ازلُّ تهاداهُ التنائف اطحلُ
(٢) غدا طاوياً يعارض الريح هافياً يجوب باذناب الشعاب ويعسلُ
(٣) فلما لواهُ القوت من حيث امهُ دعا فاجابتهُ نظائر نحَّلُ
(٤) مهلهلة شيب الوجوه كأنها قداحٌ بكفَّي ياسر لتقلقلُ
(٥) او الخشرم المبعوث حشَّت دبرهُ محايض ارساهنَّ سامٍ معسلُ
(٦) مهرتةٌ فوهٌ كأنَّ شدوقها شقوق العصي كالحاتٌ وبُسَّلُ
(٧) فضجَّ وضجَّت بالبواح كأنها واياهُ نوح فوق علياء تكَّلُ
(٨) واغضى واغضت واتسى واتَّست بهِ مراميل عزَّاها وعزَّتهُ مرملُ
(٩) شكا واشتكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبرُ ان لم ينفعِ الشكوُ اجملُ
(١٠) وفاء وفاءت بادرات وكلها على نكظ مما تكاتم مجملُ

ومعنى هذه الابيات على ترتيبها (١) ان الشاعر يغدو على القوت الزهيد كما يغدو ذئب اغبر ترامتهُ القفار (٢) فوقف في الصباح جائعاً يستنشق الرياح ويجوب شعاب الجبال وهو يهز رأسهُ ويضطرب في مشيهِ (٣) فلما لم يجد القوت حيث طلبهُ عوى عواء شديداً فاجابتهُ ذئاب اخرى وهي جائعة نحيلة مثلهُ (٤) ابدانها كالنسيج السخيف ووجوهها شائبة الشعر وهي نحيفة كانها عيدان في كف مقامر يحركها فتتقلقل (٥) او كانها دبر نحل خرج من خليتهِ لان مشتار العسل حركها بالعيدان التي يدخلها في الخلايا لاخراج العسل بها (٦) وهي اي الذئاب واسعة الاشداق فاغرة افواهها كأنَّ اشداقها شقوق العصي وتبدو عليها دلائل الغيظ والبسالة (٧) فلما رآها الذئب الاول ضجَّ فضجت هي في تلك الفلاة كأنهُ واياها نحن نوح الثكالى (٨) ثم صمت وصمتت صبراً على البلاء واخذ يعزيها وتعزيهِ تعزية الارامل بعضهنَّ بعضاً (٩) وشكا اليها بلواهُ وشكت اليهِ بلواها ورأى الفريقان ان لا فائدة من الشكوى وانهُ وان لم تنفع الشكوى فالصبر اجمل (١٠) فعاد مسرعاً من حيث اتى وعادت مسرعةً من حيث انت وهي متفقة كلها على كتمان ما بها

وقلَّ وصف الطيعة بانتشار الحضارة لكنهُ خالٍ من الوحشي والغريب كقول الصفي الحلي في وصف الكراكي

اهلاً بها قوادماً رواحلا تطوي الفلا وتقطع المراحلا
اذكرها عَرْف الربيع الفها فاقبلت لشوقها حواملا
تفرق في الجو بصوت مطرب يشوق من كان اليها مائلا
لما رأت حرَّ المصيف مقبلاً وطيب برد القرّ ظلاً زائلا
اشملت التخييط في مطارها وعسكرت لسيرها توافلا
تنهض من صرح الجليل تحتها بارجل لبردهِ قوابلا
قد انتت ايام كانون لها من ان تُرَى من الحلي عواطلا
فصاغت الطلُّ لها قلائدًا والثلج في ارجلها خلاخلا

واحسن منهُ قول حميد بن ثور في الحمام

وما هاج هذا الشوق الاَّ حمامةٌ دعت ساق حرٍّ نزهة وترنمًا
مطوقة غراء تسجع كلما دنا الصيف وانجال الربيع فانجما
محلأة ظوق لم تكن من تميمة ولا ضرب صوّاغ بكفيهِ درهما
تغنت على غصن عشاء فلم تدع لنائمة من نوحها متألما
اذا حركتهُ الريح او مال ميلةً تغنت عليهِ مائلاً ومقوّمًا
عجبتُ لها انى يكون غناؤها فصيحًا ولم تفغر بمنطقها فما
فلم ارَ محزونًا لهُ مثل صوتها ولا عربيًّا شاقهُ صوت اعجما

وقال جهم بن صابي

وقد هاج شوقي اذ تغنَّت حمامةٌ مطوَّقة ورقاء تصدحُ في الفجرِ
هتوف تبكّي ساق حرٍّ ولن ترى لها دمعةً يوماً على خدها تجري
تغنَّت بلحن فاستجابت لصوتها نوائحُ بالاخياف في فنن السدرِ
اذا فترت كرَّت بلحن شجونها تهيّج للصبِّ الحزين جوى الصدرِ
دعتهنَّ مطرابُ العشيَّات والضحى بصوت يهيج المستهام على الذكرِ
فاسعدتها بالنوح حتى كأنما شربنَ سلافاً من معتّقة الخمرِ
تجاوبنَ لحناً في الغصون كأنها نوائح ميت يندبن على قبرِ

ولقد اكثر شعراء العرب من التمثل بسجع الحمام وفسّروهُ بمعناهُ الحقيقي كأنهم من علماء الحيوان